الفصل الخامس

مـن الوجــوه المرفوضـة

القول بالصرفة

إدعى بعض العلماء أن وجه إعجاز القرآن هو فى صرف الله للعرب عن الإتيان بمثله، لكن القرآن نفسه غير معجز - كما ادعى النظام من المعتزلة حين قال:

«إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به»(١).

ومثل النظام فى هذه المقالة عيسى بن صبيح الملقب بالمردار وهو تلميذ بشر بن المعتمد فإنه يقول: «إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظما»(٢).

كذلك ذهب الرمانى من المعتزلة إلى القول بالصرفة واعتبره وجها من وجوه الإعجاز حيث يقول: «وأما الصرفة فهى صرف الهمم عن المعارضة. وعلى ذلك يعتمد بعض أهل العلم فى أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن معارضته وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التى دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز»(٣).

وواضح من هذا النص أن القرآن فى حد ذاته مقدور عليه إلا أن العائق عن معارضته مع القدرة عليه هو وجه الإعجاز.

وغريب هذا الكلام من الرمانى وهو الذى أشار إلى إعجاز القرآن بالنظم والبلاغة ولا يمكن الجمع بين القول بالصرفة والقول بالنظم، ومن هنا رأى بعض

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ١٠١.

(٢) الملل والنحل جـ ١ صـ ٦٨.

(٣) السابق ص ١٢.

الباحثين أن الرماني في حكايته للقول بالصرفة أراد أن يذكر رأى جماعته «المعتزلة» أما رأيه الخاص الذى يدين به فهو أن القرآن معجز بنظمه وبذاته»(١).

كذلك ذهب ابن حزم الظاهرى إلى القول بالصرفة وراح يعرض آراء المعارضين ويغالط فى تفنيدها حتى ينتصر لرأى القائلين بالصرفة»(٢).

وذهب المرتضى من الشيعة إلى أن معنى الصرفة أن الله سلب العرب العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة لكى يأتوا بمثل القرآن «وكان مراد المرتضى من هذا المعنى أن العرب بلغاء يقدرون على مثل نظم القرآن وأسلوبه ولكنهم لا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعانى إذ لم يكن أحدهم أهل علم ولا كان العلم فى زمانهم»(٣).

وإلى مثل هذا الخلط ذهب ابن سنان الخفاجى فى كتابه: (سر الفصاحة) حيث قال «وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة(..) ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه»(٤).

هذا هو كلام القائلين بالصرفة وهو كلام لا دليل عليه بل الأدلة تنقضه وتهدمه وكل مالهم فى هذا المجال هو شبه يقولون فيها:

١ - إن من يستطيع أن ينظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل عنده قدر الآية والسورة(٥).

---

(١) راجع ص ٤٤ من كتاب الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن.
(٢) راجع الفصل جـ ٣ ص ٢٧ وما بعدها.
(٣) راجع إعجاز القرآن للرافعى ص ١٦٢.
(٤) انظر رسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم.
(٥) إعجاز القرآن للباقلانى.

ومعلوم أن العرب كانوا قادرين على ذلك لأنهم أصحاب البلاغة والفصاحة ولكن صرفهم الله عن المعارضة.

٢ - إن كبار الصحابة عند جمعهم للقرآن الكريم بعد وفاة النبى كانوا يتوقفون فى بعض السور ويطلبون شهادة الثقات عليها، فقد تردد عبد الله بن مسعود فى الفاتحة والمعوذتين، فلو كان القرآن معجزا بفصاحته متميزا عن سائر الكلام لما احتاج هؤلاء إلى التثبت والتأكد(١).

مناقشة القول بالصرفة:

يرى بعض الباحثين أن الأصول الأولى لفكرة الصرفة موجودة عند الهنود البراهمة حيث ورد فى كتاب «تحقيق ما للهند من مقوله» للبيرونى أن الهنود قد نسبوا لله كلاما صار عندهم كتابا مقدسا وقد اختلفوا فى إعجازه، فمنهم من يقول بأن إعجازه فى نظمه إذ نظمه مخالف للنظم المعروف، ومنهم من يرى أنه فى مقدورهم ولكنهم ممنوعون عنه احتراما»(٢).

فهذا القول الثانى قريب من القول بالصرفة.

وإذا صح هذا القول، فلربما استطاع النظام أن يستقى قوله من الكتب المترجمة التى نقلت فى عهد الدولة العباسية، وفى هذا يقول الشهرستانى فى الملل والنحل «إبراهيم سيار بن هانىء النظام - طالع - إبراهيم كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وانفرد عن أصحابه بمسائل منها: قوله فى إعجاز القرآن أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين من أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما»(٣).

---

(١) سعد الدين التفتازانى جـ ٢ صـ ١٣٦ وما بعدها.
(٢) قارن صـ ٣٠ من كتاب الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن.
(٣) الملل النحل جـ ١ ص ٥٧.

ويفصح الشهر ستانى أيضاً (فى نهاية الإقدام) عن الأساس الذى قام عليه هذا المذهب وهو «إعتقادهم أن القرآن مخلوق خلقه الله فى بعض الأجرام ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق»(١) أى بين كلام وكلام.

ومما هو جدير بالذكر أن القاضى عبد الجبار وهو من كبار أساتذة المذهب المعتزلى ينكر القول بالصرفة ويناقشه فى أكثر من موضع من كتابه المغنى(٢).

ذلك أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن مسلم مؤمن بكل ماورد فى القرآن الكريم فمن المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن هو معجزة رسول الله الكبرى وحجته على الخلق إلى يوم الدين فكيف يستبيح لنفسه أن يقول «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة».

وكيف يستبيح لنفسه أن يسوى بين القرآن وبين سائر الكتب السابقة – مع أن هذه الكتب لم تكن معجزات لأنبيائها خلافا للقرآن الذى كان معجزة الرسول الكبرى.

فمن البدهيات فى تاريخ الأديان أن الكتب السابقة لم يَتَحَدَّ الله بها البشر، ولم يصفها بما وصف به القرآن الكريم حيث وصفه بأنه «بلسان عربى مبين» وأن البشر عاجزون عن الإتيان بسورة من مثله على الرغم من أنهم يتحدثون بلغته.

ولم نسمع فى تاريخ الأديان أن أهل التوراة والإنجيل قد ادعوا الإعجاز لكتابهم، ذلك أن الإعجاز فى الكتاب هو من خصوصيات القرآن الكريم، فلا ندرى بعد ذلك كيف يسوى النظام بين القرآن وسائر الكتب السابقة مع أن هذه الكتب لم تكن معجزات أنبيائها فقد أعطاهم الله معجزات حسية أخرى، أما القرآن الكريم فقد كانت آياته هى المعجزة، يقول الرسول ﷺ «مامن نبى إلا وقد أوتى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

(١) نهاية الأقدام صـ ١٢٧.
(٢) المغنى جـ ١٦ صـ ٢١٧، ٣٢٧.

ومعنى هذا أن معجزة الرسول فى نفس الوحى وما أوحى إليه فيه الدليل على أنه من عند الله إذ هو ذاته المعجزة ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كان القرآن يلفت نظرهم إلى أن الآية والمعجزة بين أيديهم. «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون»(١) فأخبرت الآية أن الكتاب آية من آياته وتقوم مقام معجزات غيره من الأنبياء فظهر بهذا أن نبوة محمد ﷺمبنية على إعجاز القرآن ودلالته على أنه من عند الله، وبهذا يتميز القرآن الكريم عن غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عنها «وهو المعجزة الحسية المرئية على يد النبى، لكن نظم نفس الكتاب غير معجز. وليس كذلك القرآن فإن نظمه معجز ومن يسمعه بإنصاف يعلم أنه كلام الله يقول الله تعالى «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله» فلولا أن نفس الكلام معجز فى ذاته لما جعل مجرد سماعه حجة على المشرك(٢).

وهذا ما يدحض إدعاءات النظام فى التسوية بين القرآن وبين سائر الكتب السابقة «والواقع أن أصحاب هذا الرأى كانوا من الحاقدين على القرآن الكريم المنكرين لإعجازه فى ذاته وهى محاولة خبيثة لإسقاط القداسة عن القرآن الكريم حتي تصل البجاحة والوقاحة بأحدهم أن يقول: إن فى كلام العرب مايضاهى القرآن فى تأليفه!!

وإنه لقول عجيب، وكيف غاب هذا القول عن مشركى مكة، ولماذا لم يقولوا لرسول الله ﷺإننا نستطيع أن نأتى بمثل هذا القرآن إلا أننا نجد قوة خارجة عن إرادتنا تمنعنا من ذلك؟

وهكذا يتبين لنا أن كل ماقالة دعاة الصرفة ينقضه العقل والمنطق وحقائق التاريخ. هذا ويمكن أن نناقش هذا الرأى الخاطىء بما يأتى:

أولا : أنه قول ينكر ما علم من الدين بالضرورة وهو أن القرآن معجزة رسول الله ﷺ وحجته على سائر الخلق.

---

(١) العنكبوت الآية : ٥٠، ٥١.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ صـ ١١٧.

ثانيا : أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن الكريم فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة الإعجاز، فالشأن فى المعجزة أن تكون أمراً خارقا للعادة خارجا عن إمكانات البشر، ولكن الصرفة تستلزم أن تكون المعجزة مما يدخل فى مكنة البشر ولكنهم يسلبون القدرة على مثلها فى حالة التحدى.

ثالثا : أنه قد يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى وخلو القرآن من الإعجاز – ومعنى هذا أن الناس اليوم قادرون على الإتيان بمثله وهذا كلام ينقضه الواقع فالقرآن معجز بذاته لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله.

رابعاً : أن هذا القول فاسد بدليل قول الله تعالى «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» فإن هذه الآية الكريمة إنما تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق هناك فائدة لاجتماعهم لأنه حينئذ يكون بمنزلة اجتماع الموتى، فما فائدة اجتماعهم مع سلب قدرتهم وهل عجز الموتى مما يحتفل بذكره(١).

خامسا : ولو كان الأمر كما قالوا لوجدنا عند عرب الجاهلية الذين لم يصرفوا عن معارضته مايضارع القرآن ولم يكن الأمر كذلك، وهذا ما عبر عنه أبو بكر الباقلانى بقوله: «على أنه لو كانوا صرفوا على ماادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا البتة ولم تلزمهم حجته فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله، علم أن ماادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان»(٢).

وتحليل هذا النص أنا لو سلمنا بأن العرب الذين نزل فيهم القرآن، قد منعوا من أن يأتوا بنظيره بصرف الله لهم عن ذلك، فماذا يقول أصحاب هذا المذهب فى أهل الجاهلية قبل نزول القرآن، فمنهم فحول الشعراء والخطباء الذين قالوا ماقالوا فى حرية تامة، ولم يصرفهم صارف عن الجودة والإحكام فى أشعارهم، ومع ذلك لا نجد لهم شيئاً يشبه القرآن فى إعجازه البلاغى.

---

(١) راجع صـ ١١٨ جـ ٢ من الاتقان فى علوم القرآن.
(٢) اعجاز القرآن ص ٣٠.

سادسا : ومما يهدم هذا الرأى أنه لو كانت المعارضة ممكنة – وإنما منع منها بالصرفة – لم يكن القرآن معجزاً وإنما يكون المنع هو المعجز فلايصبح هناك فرق بين كلام الله المنزل فى القرآن وبين سائر كلام البشر(١).

سابعا : ولو صح القول بالصرفة لما كان هناك ما يدعو إلى نزول القرآن على رسول الله ﷺ وهو فى قمة البلاغة والفصاحة والبيان، بل كان الأولى أن يأتى فى أدنى درجات الفصاحة حتى يكون وجه إعجازه أعمق حيث صرفوا عن شىء أدنى مما برعوا فيه وهذا ما يعبر عنه أبو بكر الباقلانى بقوله «على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمة الممتنع لكان مهما حط عن رتبة البلاغة ومنع من مقدار الفصاحة فى نظمه كان أبلغ فى الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه فى المعرض الفصيح العجيب(٢).

ثامنا : وأما شبهتهم التى ادعوا فيها أن العرب كانوا قادرين على نظم كلمتين بديعتين فيكونون قادرين على نظم مثلهما حتى يتكامل قدر السورة فالجواب عنها: أنه لو صح ذلك لصح لكل من أمكنة نظم ربع بيت أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ومعلوم أن ذلك غير ممكن(٣) فحكم الجملة يخالف كل واحد من الأجزاء، ولو صح ما ذكره هؤلاء، لكان كل واحد من العرب قادرا على الإتيان بمثل قصائد فصحائهم مثل امرىء القيس وغيره لكن اللازم باطل فبطل ما أدى إليه من القول بالصرفة.

تاسعا : وأما الشبهة الثانية التى ادعوا فيها أن كبار الصحابة قد توقفوا فى بعض الآيات، فالرد عليها أن هذه الرواية لايقبلها عقل منصف وإلا فكيف يتوقف ابن مسعود فى الفاتحة التى كان يصلى بها خلف رسول الله خمس مرات

---

(١) السابق ونفس الموضع.
(٢) السابق ص ٢٩.
(٣) السابق ونفس الموضع.

يوميا، فحتي ولو كان سند الرواية صحيحا فإننا نطعن فى متنها لأنه لا يتفق مع العقل.

وعلى فرض صحة هذه الرواية فإن توقف بعض الصحابة في بعض سور القرآن ليس معناه أن القرآن غير معجز بذاته، بل معناه أنهم كانوا يحتاطون للقرآن الكريم ويدققون فى جمعه، فالرواية التى أوردوها لاتثبت مدعاهم وهو أن القرآن الكريم غير معجز بذاته ولا يتميز عن كلام البشر فى شىء وإلا فليخبرنا هؤلاء لماذا كان يتعجب فصحاء العرب من حسن نظم القرآن وبلاغته ويطربون لسماعه، ولماذا قال الوليد بن المغيرة ما قال في شأن القرآن؟ أيصدر مثل هذا القول عن رجل لايدرك أن القرآن معجز فى ذاته، أيصدر عن رجل يشعر من نفسه القدرة على الإتيان بمثل القرآن؟ إن مقولة الوليد بن المغيرة عن القرآن الكريم لتقطع ألسنة القائلين بالصرفة وتثبت بما لايدع مجالا للشك أن القرآن معجز بذاته وأن كل سورة فيه إنما تنطق بهذا الإعجاز الذاتي.

وأخيراً فقد رأى بعض الباحثين أن ترك المعارضة لا يمكن أن يكون وجها فى الإعجاز، وغاية مايعطيه هذا القول فى قضية الإعجاز أنه دليل على قيام الإعجاز فى القرآن حيث لم يعارض مع طول التحدى فهو والأمر كذلك مسألة سلبية .. بخلاف النظم الذى هو صفة قائمة فى نص القرآن وأسلوبه يمكن تلمسها على مدى الزمن، وكان الجاحظ أدق نظرا وأصح تعبيرا حين قال: «وإنما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة فمتى قابلونا بأخبار فى وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها، فقد عارضونا فأما الإنكار فليس بحجة»(١).

ولقد قال الرافعى عن القول بالصرفة إنه لايختلف عن قول العرب «إن هذا إلا سحر يؤثر»(٢) وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضربا من العمى فقال «أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون»(٣).

---

(١) راجع كتاب حجج النبوة – على هامش الكامل جـ ٢ صـ ٤٥.

(٢) المدثر ٢٤.

(٣) الطور ١٥.

والتشابه بين القولين يجمعه تعليلهما عدم القدرة على الإتيان بالمثل لسبب خارج عن القرآن - لا لما تضمنه من وجوه الإعجاز، فالقول بالصرفة يعطى أن العرب لم يكونوا عاجزين وكذلك الأمر فى السحر(١).

• • •

(١) الرافعى - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ ١٨٩ القاهرة سنة ١٩٢٨.